الشيخ محمود الحامد

عبد الحميد طهماز

عاش الشيخ محمود الحامد والد سيدي رحمهما الله تعالى، غلبت عليه صفة التصوف واشتهر بها، وكان حار المزاج حاد الطبع، كثيراً ما تطغى عليه الأحوال الشديدة، على جانب كبير من الصلابة الدينية والورع، عفيف النفس، كريم القلب، يوم الاثنين 26 من شهر ربيع الأول 1334هـ، كانت وفاة المرحوم الشيخ محمود الحامد شيخ الطريقة النقشية بحماة.

ولادته:

ولد سيدي رحمه الله تعالى سنة 1328هـ - 1910م، وعاش في كنف والديه وبين أخوية ستة أعوام تقريباً، وفجع في السادسة من عمره بوالده، وفي العام نفسه فجع أيضاً بأمه، وذاق مرارة اليتم والفقر عدداً من السنوات، وكان والده يتحدث مراراً أن ولده هذا سيكون عالماً، ورآه مرة بعض الصالحين، فأسرع إليه مقبلاً ومعانقاً وهو يردد: الشيخ محمد، الشيخ محمد.

ولما مرض الوالد مرض الوفاة، اشتد به القلق على أولاده، خاصة وأنه لم يتمكن من خلال حياته كلها، أن يوفر لهم شيئاً من المال يتركه لهم، والبلاد تلفها المجاعات والأوبئة طيلة الحرب العالمية الأولى، فأخذ يبحث عن وصي يوصيه عليهم، فلم يجد أحداً؛ لأن كل إنسان يشغل خلال الأزمات بنفسه، فما كان منه إلا أن أوصى الله عليهم، فكان يردد في مرض وفاته: (**إني أوصي الله على أولادي**) وأشار إلى ولده الكبير بدر –وكان حينئذ في سن الخامسة عشرة من عمره– ليقترب منه، فهمس في أذنه بكلمات، أوصاه بها أن يعتني بأخويه الصغيرين.

اليتيمان:

كانت وفاة الوالد في تلك الظروف القاسية ضربة شديدة، تبعتها أخرى بوفاة الوالدة، فلم تحتمل العائلة الصغيرة شدة هذه المصائب، فتفرق شمل الإخوة، واضطر الأخ الكبير للانفصال عن أخويه الصغيرين.

فكيف اجتاز اليتيمان سنوات الحرب العجاف بضعفهما وفقرهما؟.

أذكر أن سيدي رحمة الله تعالى، حدثني عن هذه المرحلة في حياته، في إحدى رحلاته التي تشرفت بخدمته أثناءها، حدثني عن مشاعر الألم التي كانت تحز في نفسه، وتمور في فؤاده، دون أن يستطيع في ذلك الوقت التعبير عنها، وأذكر من حديثه أنه قال لي: "لو كان لليتيم لسان يبين به عن لوعاته وآلامه؛ لأبكى الحجارة الصماء، مرت بنا أيام، كنا كثيراً ما نبقى في المدرسة في فرصة الغداء دون طعام، معظم التلاميذ يذهبون إلى بيوتهم، ونحن نبقى في المدرسة؛ لأنه لم يكن لنا بيت ولا طعام، حتى إن أخي كان يبكي أحياناً من شدة الجوع، أما أنا فكنت أشغل نفسي باللعب عن آلام الجوع". وحدثني مرة كيف عثر في الطريق على ليرة ذهبية، فحملها وهو لا يعرف حقيقتها لأنه ما رأى مثلها في حياته، ورآها أخوه بدر معه وهو يلعب بها، فأخذها منه ليشتري لنفسه وأخويه حاجات العيد المقبل الضرورية.

وحدثني عن فرحته الكبرى لأول مرة في هذا العيد، بالحذاء الجديد، والثوب الجديد، ولعبة القطار الآلي التي وعده أخوه بها، عندما أخذ منه الليرة الذهبية[1].

نشأته العلمية

لم يغفل بدر الدين عن تعليم أخيه محمد حتى في أشد أيام البؤس، فقد أدخله المدرسة الابتدائية، وهو ما يزال في الفترة التي كان يعيش فيها عند الأسر الفقيرة في أطراف البلد، وأيقظ فيه روح الجد، لما كان يرى فيه من مخايل الذكاء، فلم يقبل منه وهو في الصف الأول إلا أن ينال الدرجة الأولى على رفاقه، فحقق محمد لأخيه ما أراد منه، وفاز بالدرجة الأولى لذلك العام. وتابع بعد ذلك سيره في المدرسة من صف إلى صف، وفي السنة الثالثة من دراسته، انفرجت الحياة قليلاً لأخيه بدر الدين من بعد الشدة، وتخرج من الصف السادس سنة 1922م، فأدخله أخوه المدرسة الإعدادية، وفي نيته أن يتابع له تحصيله فيها للعلوم العصرية، لكن محمداً لم ينسجم مع بيئته الجديدة في المدرسة، وبدا عليه التقصير في دروسها، فإن ميله إلى العلم الشرعي والتزامه حلقات بعض الشيوخ في طلبه، وسلوكه الديني الصارم؛ كل ذلك لم يلائم بينه وبين بيئة هذه المدرسة. فأخرجه من المدرسة الإعدادية سنة 1923م، ووضعه عند معلم خياطة للملابس العربية، ليتعلم عنده مهنة الخياطة، ويتابع

[1] تصدق رحمه الله بعد ذلك على الفقراء بقيمة هذه الليرة بعد أن أخبره أخوه بها

معها العلم الشرعي كما يريد، فكان محمد يعمل في النهار في الدكان، ويحضر بعد المغرب دروس العلماء في المساجد، وينضم بعد العشاء إلى الحلقات الخاصة لطلب العلم.

المدرسة الشرعية في حماه

كانت أيام المدرسة الشرعية أسعد أيام حياته رحمه الله؛ ففيها تحدد مستقبله العلمي الشرعي الذي كان يطمح إليه، وفيها ظهرت عملياً إمكاناته الفكرية الهائلة التي تفضل الله بها عليه، فرغم صغر سنه بين أقرانه من طلاب المدرسة كان الأول بينهم. وهيأ الله له في المدرسة وخارجها شيوخاً صالحين، تحدث عنهم، فقال:

"تأثرت بكثير من أساتذتي وشيوخي الذين لهم الفضل الكبير عليَّ، كفضيلة خالي الكريم الأستاذ الشيخ محمد سعيد الجابي المدرس العام في حماة رحمه الله تعالى[2]، فهو الذي دفعني في سبيل العلم الديني، وأمرني بحفظ القرآن الكريم، وأقرأني مبادئ العلوم الدينية.

ومنهم فضيلة أستاذي الفقيه الجليل، شيخ الشافعية في حماة، ورئيس جمعية العلماء فيها، الشيخ محمد توفيق الصباغ أدام الله توفيقه وجزاه الله عني وعن زملائي طلابه خيراً.

ومنهم سماحة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سعيد النعساني مفتي حماة، ذو الباع الطويل في العلوم والمعارف، فقد كان له مع فضل التعليم فضل رفع الهمة إلى معالي الأمور.

ومنهم فضيلة عمي والد زوجتي، الأستاذ الفقيه الحنفي، الحجة العالم العامل، التقي الورع، الزاهد في الدنيا، شمس علماء حماة وبدر شيوخها، الشيخ أحمد المراد رحمه الله وبارك عليه، إنه من شيوخي الذين لهم عليَّ فضل التربية والتعليم، وقد أكرمني الله فجعلني صهراً له على ابنته".

المدرسة الخسرَوِيَّة الشرعية في حلب

وفي سنة 1347هـ - 1928م أنهى رحمه الله تعالى دراسته في مدرسة حماة، فرحل في السنة نفسها إلى حلب يبحث عن منهل علمي جديد فهيأ الله له سبيل الانتساب إلى المدرسة الخسروية الشرعية فيها، وكانت تعتبر في ذلك الوقت أرقى المدارس الشرعية في بلاد

[2] توفي سنة 1948 م.

الشام، فالتدريس فيها منوط بنخبة من العلماء الكبار، فكان يداوم على دروس عالم حلب الكبير الشيخ نجيب سراج رحمه الله تعالى.

ولم يكن رحمه الله تعالى يقتصر في دراسته العلمية على كتب المناهج الرسمية، بل كان يطالع الكثير من المصنفات.

العودة إلى حماة

وفي سنة 1353هـ عاد رحمه الله إلى حماة بعد أن أنهى دراسته في حلب، ولم تطل فترة استقراره في حماة، فقد رحل عنها سنة 1356هـ إلى مصر، ملتحقاً بالأزهر الشريف. لكنها كانت رغم قصرها ذات أهمية كبرى في حياته رحمه الله تعالى.

وفي هذه الفترة أيضاً، خاض الشيخ صراعاً فكرياً عنيفاً ضد الذين كانوا يناوئون الصوفية في حماة، وهم أتباع خاله الشيخ سعيد الجابي رحمه الله تعالى، ومن المعلوم أن سيدي كان موافقاً لهم قبل رحلته إلى حلب، بل إن خاله الشيخ سعيد كان يعدّه ليكون خليفته في هذا، فأصيبوا بتحوله إلى الصوفية بخيبة أمل مريرة، زاد من مرارتها، الموقف الصارم الذي وقفه الشيخ منهم، حتى تمكن رحمه الله من تثبيت أقدام الصوفية في البلد، بعد أن زعزعتها الحملات العنيفة التي كان يشنها الشيخ سعيد عليهم في دروسه العامة.

وإن موقف سيدي رحمه الله هذا، هو الذي أدى إلى تركه الخطبة في جامع الأشقر، لكن الله سبحانه وتعالى عوضه عنه بجامع السلطان، كما جر عليه كثيراً من التعب والعناء، فنصحه شيخه أو النصر أن يبتعد عنهم، ولذلك كتب إلى شيخه رحمه الله قائلاً: "كنتم أرسلتم لي كتاباً تأمرونني فيه بالابتعاد عن المنكرين بقدر الإمكان، وعدم مكالمتهم ومجادلتهم فيما يتعلق بأمر الطريق، وقد وفقني الله تعالى لامتثال أمركم حسب الطاقة، ووجدت له أثراً حميداً في نفسي وأشعرت بالتقدم والزيادة من الخير ببركتكم وعطفكم، غير أني لا بد لي يا سيدي من الخلطة ببعضهم، والاجتماع بهم، وأنا من هذا تجاه أمر واقع، أتمنى الخلاص منه، فلا أقدر عليه، ولا يخفى على مولاي -أعزه الله تعالى- أن المنكر لا يصبر عن الجدال مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه؛ إلا أعطوا الجدل"[3].

[3] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم. انظر الفتح الكبير.

بدأ يلقي دروسه العامة في هذه الفترة، ففي سنة 1353هـ عهد إليه الشيخ أحمد المراد -رحمه الله تعالى- بالتدريس مكانه بعد الظهر في الجامع الجديد. وبعد تركه جامع الأشقر، طلب منه الشيخ أديب الحوراني -رحمه الله تعالى- أن يخطب عنه في جامع السلطان، وبعد مدة كلفه بالتدريس. ومنذ ذلك الوقت أصبح مسجد السلطان المركز الرئيسي لجهوده التعليمية.

الرحلة إلى مصر

وفي عام 1356هـ الموافق 1938م سهل الله تعالى له سبيل الارتحال إلى مصر، والانتساب إلى الأزهر؛ ليتمم دراسته العالية فيه.

وقامت في وجه رحلة مصر عقبات، لم يستطع رحمه الله اجتيازها حتى عام 1356هـ، ففي هذه السنة سافر إلى مصر، وهو يظن أن المجتمع المصري لا يفترق كثيراً عن المجتمعات في حلب وحماة، وإذا به يفاجأ باختلاف كبير، فقد سبقت مصر البلاد العربية في تأثرها بأفكار الغربيين وعاداتهم، فانتشر فيها السفور والاختلاط بين الرجال والنساء انتشاراً كبيراً، وخاصة في القاهرة والإسكندرية، ولم يكن الشيخ رحمه الله تعالى يحتمل رؤية المنكرات، وما كان يطيق صبراً في السكوت عنها، فما كان منه بعد بضعة أيام من وصوله، إلا أن عاد إلى حماة، ولكن الناس في حماة استهجنوا عودته، ولاموه أشد لوم، وأصبحت عودته حديث الأندية، فأينما ذهب تأخذه الأبصار، وحيثما سار تتبعه الغمزات والابتسامات.

وسبب ذلك أن الناس كانوا ينظرون إلى الأزهر نظرة إجلال وإكبار، ويعتبرون الدراسة فيه نعمة كبرى، وفرصة عظمى، لا يجوز في نظرهم تفويتها والإعراض عنها، فكر راجعاً إلى مصر وترك حماة ليلاً، ولم يتمكن من زيارة شيخه لوداعه، ولما وصل إلى مصر كتب إليه يشرح له حاله، وما لاقاه من الناس، ويعتذر عن عدم وداعه.

والحقيقة أن ما يراه الزائر لأول وهلة في مصر، لا يعبر عن حقيقة المجتمع المصري، فالمجتمع المصري ينطوي على خير كثير، ولا يزال في مصر الكثير من العلماء والصالحين، وهذا ما حصل لسيدي رحمه الله، فبعد بضعة أشهر تغيرت نظرته إلى المجتمع المصري.

وانقلب الكره والنفور عنده إلى محبة لمصر وأنس بالمصريين، فتعرف على كثير من الصالحين، وأقام صدقات قوية معهم، واشتهر بينهم بلقب الشيخ الحموي، ولما أنهى دراسته

فيها، ألحوا عليه بالبقاء، وأخبروه أنهم يستطيعون تأمين عمل له، وأنهم مستعدون لتزويجه ومساعدته في هذا الأمر، لكنه رحمه الله تعالى آثر العودة إلى بلده، فودع مصر باكياً على فراقها في عدة قصائد، منها:

ذبتُ يا مصرُ مذ عزمتُ رحيلاً ولو اسطعتُ عشتُ فيك طويلاً

كنت ممن رَمَوك بالنكر لكن عادَ صوتُ النكير قولاً جميلاً

وفي مصر أيضاً، التقى بالعالم الكبير الشيخ زاهد الكوثري رحمه الله تعالى[4]، وقد نصح سيدي أن لا يختلط بالناس كثيراً، وذلك لما لاحظه عند سيدي من شدة نفوره من المنكرات، وتألمه من رؤيتها.

وفيها أيضاً تعرف على الرجل الصالح، والعالم العامل، فضيلة الشيخ مصطفى الحمامي رحمه الله تعالى، تأثر به كثيراً وأعجب بصلاحه وتقواه، وكان كثير الزيارة له، وبعد عودته من مصر، كان كثير الحديث عنه.

ومن الملاحظ أن أكثر الذين تأثر بهم سيدي في مصر، كانوا من خارج الأزهر، ولم يستفد من الأزهر زيادة في علمه. فقد قالوا له بعد اختبار الانتساب إلى الأزهر: "إنك عالم لا تحتاج إلى الدراسة فيه" ولكنه كان يعلن أنه استفاد من دراسته في الأزهر طريقة تحقيق المسائل وتدقيقها، وهو أمر ظاهر في آثاره العلمية وفي أجوبته الفقهية، وكان زملاؤه في الدراسة يدهشون من كثرة معلوماته، وغزارة محفوظاته، وخاصة في الأحكام الفقهية؛ حتى إن الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله تعالى -وكان زميل الشيخ في الدراسة الأزهرية – كان كثيراً ما يقول له: "إنك مدهش؛ من أين لك معرفة كل هذه الأحكام؟!".

ولما أنهى دراسته العالية بتفوق، طلب منه المشرفون على الأزهر أن يدخل قسم التخصص العالي، ولكنه رحمه الله تعالى أبى وآثر العودة إلى بلده؛ لشدة حاجة البلد إليه.

[4] كان وكيل المشيخة الإسلامية في دار الخلافة العثمانية، وأستاذ العلوم القرآنية في (معهد التخصص في التفسير والحديث) وأستاذ الفقه وتاريخه في القسم الشرعي من الجامعة العثمانية، وأستاذ العربية في دار الشفقة الإسلامية. لجأ إلى مصر بعد سقوط الخلافة العثمانية وتوفي فيها سنة 1371 هـ رحمه الله تعالى.

الاستقرار في حماة

وفي عام 1362هـ /1942م عاد رحمه الله إلى حماة، ليعيش آخر مراحل حياته. وفي هذه المرحلة أثمرت جهوده، وأينعت ثماره، ومع أنها مرحلة الاستقرار؛ فإنها كانت أكثر مراحل حياته، تعباً ومشقة، وهي مرحلة الجهاد، لا في ميدان واحد، وإنما في ميادين متعددة أهمها:

جهاده الوَطني

لما عاد الشيخ إلى حماة، كانت البلاد في ذروة جهادها الوطني من أجل الحصول على الاستقلال، وهذا أحد الأسباب التي دفعت الشيخ للرجوع إلى بلده. ليضم صوته إلى أصوات المطالبين بالاستقلال، ويذكي بخطبه الحماسية جذوة النضال والجهاد في قلوب الأمة، داعياً إلى الثورة على المستعمرين، وتطهير البلاد منهم، وهو الأمل الذي كان يراوده منذ رآهم يدخلون البلاد، وكان وقتئذ في العاشرة من عمره.

ولم يبال رحمه الله بطغيان المستعمرين وإرهابهم وبطشهم، بل اندفع يزأر من فوق منبر السلطان، داعياً إلى الجهاد والثورة المسلحة ضد المستعمرين.

ولما وقعت مأساة فلسطين، تألم الشيخ كثيراً، ودعا إلى الخروج للجهاد، وأراد رحمه الله أن يخرج بنفسه، ولكن كبار العلماء أشاروا عليه بالبقاء لحاجة الأمة إليه، ولكثرة عدد المجاهدين، فانضم إلى اللجان المشكلة لأجل مساعدة اللاجئين ومواساتهم، وجمع المعونات المادية لهم، وكان يطوف على الناس بنفسه لهذا الغرض. ولقد استحوذت قضية فلسطين على اهتمامه، فخصص لها الكثير من خطبه المنبرية، وكتب عنها عدداً من المقالات في الصحف والمجلات.

وكان دائم الوصية للشباب، لينضموا إلى الجيش، ويكونوا من ضباطه وجنوده، وفي عام 1956م أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر انضم الشيخ إلى صفوف المقاومين الشعبيين، وحمل السلاح بنفسه، وكان يخرج على رأس إحدى المجموعات إلى حقول التدريب. ولما وقعت نكسة حزيران عام 1967م اتصل رحمه الله بمحافظ البلد، وعرض عليه نفسه وجهوده، وأخذ يشد من عزيمة الناس، ويعمل على تقوية معنوياتهم، ويدعوهم إلى التدرب على استعمال السلاح، وقد خرج بنفسه رحمه الله إلى حقول التدريب والرمي؛ ليتدرب على إصابة الهدف بصورة عملية.

جهَادُهُ الاجتماعي

منذ أن استقلت البلاد، أدرك الشيخ رحمه الله تعالى أن الأمة أصبحت على مفترق الطرق، فقد ظهرت فيها دعوات مختلفة الاتجاهات، تدعو إلى الميوعة، والتحلل من التكاليف الدينية، ونشر الفساد في البنية الاجتماعية للأمة؛ وذلك بتشجيع السفور والتبرج، واختلاط الرجال بالنساء. هذا فضلاً عن أفكار تشكك الناس بعقيدتهم وتدفعهم إلى الإباحية والإلحاد.

ورأى أن واجبه الأول في هذه الحياة، أن يقف في وجه هذه التيارات، وأن يعمل للحفاظ على عقيدة الأمة وذاتيتها المستقلة، وكيانها المتميز، فقام رحمه الله تعالى بهذا الواجب، متحملاً كل متاعبه ومسؤولياته، ومعرضاً نفسه لمخاطر جسيمة.

ولقد امتاز جهاد الشيخ في هذا المضمار بصفات أهمها:

أولاً: السلاح الوحيد الذي استعمله الشيخ في جهاده هذا هو العلم، والرد العلمي المقنع المؤيد بالأدلة والبراهين، تزينه العاطفة الصادقة، النابعة بصدق وإخلاص من قلبه الكبير.

ثانياً: لم يكن الشيخ في جهاده، يعادي إنساناً معيناً أو فئة خاصة، فقد كان يعتبر نفسه لجميع الناس، ولهذا لم ينضم إلى جماعة معينة، ولم ينتظم في سلك فئة من الفئات. بل على العكس، كان يرى أن كثرة الفئات والجماعات في الأمة، خطر يهدد وحدة الأمة، ويمزق كيانها. ويرى أن العالم يجب أن يكون لكل الناس، وفوق كل الفئات والجماعات، حتى يبقى مسموع الكلمة والنصح عند الجميع.

ثالثاً: كان -رحمه الله تعالى- في معارضته للتيارات الفكرية الفاسدة، يحرص على السلم والأمن، ويتجنب إثارة الفتن والفوضى، لئلا يؤدي ذلك إلى فساد أكبر ومنكر أعظم. وكان كثيراً ما يردد: "نحن عنصر سلام، وأينما حللنا حل السلام. لا نريد الشر لأحد من الناس، ونتمنى أن يخلق الله الخير على يد أي إنسان".

وكان يشير رحمه الله تعالى إلى أهمية العلم، وأن العاطفة الإيمانية المجردة من العلم لا تكفي. وهذا أيضاً ميدان آخر من ميادين جهاده.

جهاده التعليمي

المدرسة والمسجد هما الميدانان الرئيسيان لجهاده التعليمي. أما المدرسة فقد كانت مركز عمله الرئيسي، فمنذ أن عاد من مصر، اختار طريق المدرسة، وفضله على منصب القضاء، لأنه رحمه الله كان حريصاً على نشر العلم، مع أن منصب القضاء كان ميسراً له؛ نظراً لشهادة التخصص في القضاء التي حصل عليها من الأزهر.

وبدأ عمله في تجهيز حماة بشكل تكليف، يتقاضى أجره بحسب الساعات التي يقوم بتدريسها، ثم بعد سنتين ثبت مدرساً في ملاك وزارة التربية والتعليم لمادة الديانة والعربية، وبقي في عمله هذا دون انقطاع، حتى أجهده المرض، ونصحه الأطباء بالتخلي عن ثلثي أعماله، عندها ترك رحمه الله المدرسة مضطراً متألماً لتركها.

وأما المسجد، فقد كان الميدان الثاني لجهاده التعليمي. وكما كانت المدرسة وسيلة لاتصاله بالطبقة المثقفة في الأمة، كان المسجد وسيلة اتصاله بأفراد الأمة جميعاً، يلتقي بهم كل جمعة في خطبه المنبرية التي كان يتناول فيها موضوعات مختلفة. بعضها في العقيدة، وبعضها في عرض مسائل علمية يحتاج إلى معرفتها الناس، وأكثرها في بحث مشاكل الأمة التي تعاني منها. وقد كان رحمه الله تعالى، يختار في أكثر خطبه المواضيع ذات الصلة بحياة الأمة، ولا يقتصر على نوع معين من المواضيع شأن أكثر خطباء المساجد في ذلك الوقت.

المرحلة الأخيرة

وما ترك رحمه الله ميادين جهاده هذه حتى آخر حياته، إلى جانب أعماله العلمية الكبيرة، وواجباته الاجتماعية الكثيرة، ولم يفطن -رحمه الله تعالى- وهو في خضم أعماله ومسؤولياته إلى العلة التي تسربت إلى كبده، والتي ساعد على سرعة سريانها الأثقال الكبيرة التي ينوء بحملها العديد من الرجال. ولما بدأ أثرها يظهر في إضعاف جسده، كان -رحمه الله- يتألم لما يشعر به من ضعف ويعجب منه، ومع ذلك كان يجاهد ضعف جسمه بقوة روحه وشدة عزمه، فيمضي رحمه الله في معاناة واجباته وأعماله المتزايدة مع مرور الأيام، معتقداً أن هذا الضعف أمر عارض، سرعان ما يزول بإذن الله تعالى، ولكن الضعف العارض أصبح لازماً. ومع ذلك لم ينثن رحمه الله عن ميدان من ميادين جهاده، ولم يتخل عن أي

عمل من أعماله، حتى أثخنته الجراح، وأجهدته الآلام، ولم يبقَ له من الجسد إلا قبضة السيف ومؤخرة الرمح.

وهوى بما تبقى له من جسده على فراش الابتلاء والمرض، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف، الذي رواه ابن ماجه والحاكم على شرط مسلم، عن أبي سعيد رضي الله عنه، أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موعوك، عليه قطيفة، فوضع يده فوق القطيفة، فقال: ما أشد حُمّاك يا رسول الله؟ قال: "إنا كذلك، يشدَّدُ علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر" ثم قال: يا رسول الله: من أشد الناس بلاءً؟ قال: "الأنبياء" قال: ثم من؟ قال: "العلماء" قال: ثم من؟ قال: "الصالحون.....الحديث".

ولم يستطع المرض بآلامه وشدائده أن يصرف الشيخ عن ميادين جهاده، بل كان ميداناً جديداً انضم إلى ميادين جهاده. فكيف كان الشيخ في مرضه، وما هي مراحل المرض وتطوراته حتى قضى به رحمه الله تعالى؟